وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف بلمسيلة

كلية الآداب و اللغات
قسم اللغة و الأدب العربي

دروس في البلاغة العربية

موجهة لطلبة السنة الأولى ليسانس .

إعداد الدكتور : عبد العزيز تواتي .

السنة الجامعية : 2021/2020

المحاضرة الثانية

البحث البلاغي: نشأته وتطوره (1)

إن المتأمل في بدايات نشأة البلاغة عند العرب في العصر الجاهلي ليلمس حقيقةً معرفتهم لكثير من الأحكام النقدية والبلاغية التي تشير إلى تذوّقهم للشعر وتبصرهم وإدراكهم لأسراره وفنونه ومناحي القول فيه، إذ بلغ العرب شأوا رفيعا ومكانة متميزة في البلاغة والبيان، ولا نبالغ إذا اعتبرنا تلك المرحلة قد عرفت أرقى درجات الفصاحة والبيان؛ لما برع فيه العرب من أساليب اللغة وحذقوه من حسن البيان، ومن أكبر الدلائل على ذلك نزول القرآن متحديا إياهم أن يأتوا بسورة من مثله، فلولا قوة العرب البيانية وحسن منطقهم وبلاغة ألسنتهم لما كان هناك داع لذلك التحدّي، وليس هذا التحدّي إلا دعوة تدل بوضوح على ما أوتي العرب من اللَّسْن والفصاحة والقدرة على حوك الكلام ونظم الشعر كما تدل على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعاني وتبيين ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير.

لقد أحب العرب لغتهم واعتنوا بها، واحتفوا بها أيما احتفاء، حتى صار التفنن في القول والبلاغة في الكلام طبعا من طباعهم، ولا يكاد يقتصر على الخاصة منهم، إذ شارك فيه الجميع، نساءً وأطفالا، شيوخا ورجالا، ولا سيما الشعراء منهم والخطباء، وكان الشعر بمثابة ديوان ضخم يسجل فيه العرب مآثرهم وأيامهم وأمجادهم ومفاخرهم وكثيرا من الوقائع التي عاشوها، كما عرفوا إلى جانب ذلك ما يشبه المؤتمرات أو المجالس الأدبية، من ذلك ما رواه ابن قتيبة من أن المتلمس الشاعر قد عاب عليه طرفة بن العبد قوله: وقد أتناسى الهم عند احتضاره/ بناج عليه الصيعرية مكدم، قال ابن قتيبة: « والصيعرية سمة للنوق لا للفحول، فجعلها لفحل. وسمعه طرفة ينشد هذا، فقال: "استنوق الجمل" فضحك الناس وسارت مثلا»[1].

ومما يروى في هذا الباب تفضيل النابغة للخنساء على النساء في الشعر، وتفضيله الأعشى على الرجال، وكان حسان حاضرا فقال للنابغة: أنا والله أشعر منك ومنها ومن أبيك، فقال النابغة: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول: لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى/ وأسيافنا يقطرن من نجدة دما...ولدنا بني العنقاء وابني محرق/ فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

قال النابغة: إنك شاعر لولا أنك أقللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسان منكسرا منقطعا[2].

إن مما يميز شعراء العصر الجاهلي أنهم كانوا ينتقون اللفظ والمعاني والصور ويقفون عندها، ولا أدل على ذلك من تقديمهم لملاحظات نقدية تُعد من أسس التقعيد في علم البلاغة العربية، والمتأمل يرى ذلك جليا في أشعارهم التي تزخر بشتى الصور البيانية والبديعية من تشبيهات واستعارات ومقابلات وتجنيسات.

ومما سبق من الأمثلة يمكن القول إن الأحكام النقدية في العصر الجاهلي كانت مبنية على أساس النظر في المعاني وفي الصياغة، وأغلب هذه الأحكام لم تكن معللة، وأما المعلل منها على قلته فلمجرد الإعجاب بالمعاني أو القيم الخلقية [3]، فإذا أعجب الذي يحكم بمعنى عند

---

[1] ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، (دت)، ص183.

[2] يُنظر: عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط04، 2000م، ج08، ص113.

[3] يُنظر: الموجز في تاريخ البلاغة، ص30.

شاعر ما حكم له، وإلا حكم عليه كما رأينا في المثال السابق، فالبلاغة عند العرب في الجاهلية «كانت أمرا فطروا عليه، أو هدتهم إليه سلائقهم، وعشقته نفوسهم. وألفته ألسنتهم وآذانهم، فهم يعرفونه ولا يكادون يختلفون عليه، ولكننا لم نعرف لهم كلاما يبين عناصر البلاغة التي كانوا يتوخون»[1].

وبعد بزوغ فجر الإسلام جاء القرآن ليصف لنا ما انتهى إليه العرب من البيان وحسن القول، فيقول عز وجل مخاطبا نبيه: (وإن يقولوا تسمع لقولهم)، ويقول: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا)، ومع ذلك فإن القرآن قد أعجز أرباب البيان وأصحاب البلاغة، حتى أن الوليد بن المغيرة وقف مندهشا عندما سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن، وقال قولته الشهيرة لقومه: " والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق"، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبلغ العرب وأفصحهم، يصفه الجاحظ بقوله: «ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيرا »[2]، كما اشتهر الخلفاء بعد النبيّ باهتمامهم بالشعر ودرايتهم بفنونه، من ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: «أنشدوني لأشعر شعرائكم، قيل: ومن هو؟ قال: زهير، قيل: وبم صار كذلك؟ قال: كان لا يعاظل بين القول، ولا يتبع حوشيّ الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه »[3]، وكذلك علي بن أبي طالب الذي كان مضرب المثل في البلاغة والبيان، وسارت أمثاله وحكمه في الناس يتداولونها بينهم.

وأما عن العصر الأموي بُعَيد عصر الخلفاء الراشدين فقد برز فيه مجموعة من الشعراء الفحول أمثال جرير والأخطل والفرزدق، وما دار بينهم من هجاء وتقبيح، ومناظرات تنافسية أثيرت بين عشرات الشعراء الذي ظهروا في هذه الفترة، كما تنوعت الخطابة بين خطب سياسية ودينية وأخرى وعظية، وازدهرت ازدهارا عظيما، وكان من أهم روادها بعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه وزيد بن الحسين بن علي وسحبان بن وائل وواصل بن عطاء، بحيث عكست خطبهم بتنوعها واختلاف مواضيعها الحياة العقلية والدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية لذلك العصر الذي شهد تحضرا للعرب واستقرارا في الأمصار ورقيا في الثقافة والعلم والتفكير العقلي وظهورا لطوائف فقهية وعقدية وفكرية وسياسية تميزت بكثرة الجدال والمناظرات.

وفي العصر العباسي اتسعت الملاحظات البلاغية نتيجة لتطور الفنون الأدبية من شعر ونثر، ولا أدل على ذلك من احتراف كثير من الفرس للغة العربية وبروزهم في الشعر والنثر، كابن المقفع (ت143هـ) من خلال ترجماته لكتب أدبية وفلسفية وتاريخية، من أهمها كتاب كليلة ودمنة الذي يفيض بلاغة وبيانا، وكتاب أرسطو طاليس، وكجعفر بن يحيى البرمكي كاتب الخليفة هارون الرشيد ووزيره، وقد كان معروفا بفصاحته وبلاغته، ومن الشعراء يبرز بشار بن برد ثم أبو نواس، فاستلم هؤلاء مشعل سابقيهم من الشعراء والأدباء، وحاولوا التجديد والإضافة.

وفي هذه الفترة ظهر مذهبان: مذهب يرى أصحابه ضرورة أن يقترب الشعر من لغة العامة، وهذا المذهب يمثله أبو العتاهية الشاعر، ومذهب يؤمن بالجزالة والضخامة واستخدام

---

[1] المرجع السابق، ص31.

[2] الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط07، 1998م، ج02، ص17، 18.

[3] الشعر والشعراء، ص137، 138.

التشبيهات والاستعارات والمجازات والمقابلات والجناسات، وهذا يمثله الشاعر مسلم بن الوليد.

تطبيق:

ـ كيف كانت الملاحظات البلاغية في العصر الجاهلي ؟

ـ إلى أي مدى يتقاطع فن النقد مع علم البلاغة في العصر الجاهلي؟

ـ ما مدى تطور الأحكام البلاغية في العصر الأموي؟